عني ويجزيك خيرا وينيلك مرامك. وهمّ بالسير الا ان صاحبنا لم يكد هذا الدعاء يصل الى سمعه حتى شعر بارتياح شديد ومال الى الاكثار من محادثة هذا الشيخ الغريب. فاستوقفه قائلا. يا هذا اراك تعبا والمسافة بيننا وبين المدينة قريبة لا تتطلب جد السير. فاجلس هنا قليلا لنتحادث فالمكان جميل والهواء عليل وخذ هذه قطعة بقرشين اخرى وهذه سيجاره فدخنها فاخذ الشيخ القرشين والسيجاره وشكر وجلس

— الفصل الثاني —

بدء الحديث

بعد ان استراح شيخنا قليلا بادره الشاب بالسؤال قائلا. من أين أنت ياهذا وما اسمك وإلى أين قاصد؟ فاجاب الشيخ وقال. اما من أين أنا فاني لا اعرف لي وطنا مخصوصاً أعيش هنا وهنا اطوي الفيافي والقفار وازور المدن والقرى متنقلا من مكان إلى مكان في أرض الله الواسعه ليس لي مقصد سوى البحث والتنقيب اراقب الطبيعة واستجليها المكنون لعلي اهتدي إلى سر وجودي وسر الوجود فادعني

ان شئت باحثا . فاكبر الشاب هذا الجواب وتبين له ان هذا الشيخ الذي ظنه اولا أحد الدراويش المتسولين ليس هو بالرجل العادي بل ان هذا الجسم الحقير المظهر يحوي نفساً كبيرة وهذا الرأس العاري المعفر بالغبار فيه عقل راجح عظيم ربما قل وجوده في أعظم الجامعات وسر كثيراً بسنوح هذه الفرصة التي أقامها له القدر عفوا لعله يستفيد منه بما يشفي غليله حيث ان غاية هذا الشيخ الباحث هي كما بدا من جوابه نفس الغاية التي يصبو اليها ويسعى وراءها. فقال له والى أية نتيجة وصلت ياصاح لعلك توفقت في ابحاثك ومراقباتك الى أمر حاسم تهديني اليه لاني وان اختلفت معك مظهراً وعيشة فغايتي هي نفس الغاية التي سعيت وتسعى أنت اليها فبالله عليك افدني وزدني افادة وايضاحاً فحدّق الشيخ فيه نظره كمن يريد أن يخترق أعماق افكاره ليرى حقيقة أمره هل صحيح مايريد هذا الشاب أو هل سؤاله هذا هو من باب الازدراء حيث ان هذا الامر قليل من يبحث فيه من الناس وأقل منه أيضاً من يعيره من الاهمية التي يجب ان تكون له . وبعد أن صعد بصره فيه مراراً

وصوبه وتحقق منه الجد أبرقت عيناه سروراً وبانت على وجهه علامات الارتياح فاجابه وقال :

يابني . ان البحث عن الحقيقة يجب أن يكون غاية كل عاقل ومفكر حتى اذا ما وصل اليها أو الى مايدانيها سار معها أو مع مايكون قد ظهر له منها موفقا أعماله مع سننها حيث ان السعادة الحقيقية والراحة التامة هي فيها ومعها .

لقد مررت بك الآن مرة وثانية دون أن تنتبه الي فرأيتك غارقا في تأملاتك فاستلفتت حالتك نظري وشعرت بميل اليك لم أعرف له أولا سببا ولكن لم البث أن ذكرت ماقيل « ان الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر اختلف » لذا وقفت اخيراً حيث رأيتني قادما محدقا بك النظر مفكراً واتيت بحركة تنبهت انت اليها

فنبهت الشاب لهذا وعرف حينئذ سر الانزعاج الخفي الذي شعر به قبل أن يرى الشيخ

لقد ولدت بابني على ماقيل لي من ابوين صالحين لم اعرفهما لانهما ماتا قبل أن أبلغ الرابعة من العمر فربيت يتيما تتلاعب

بي أيدي الاغراب الى أن بلغت العاشرة . ففي ذات يوم
بينما كنت العب مع أحد أولاد الجيران ونلاعب كلبا صغيرا
نركض ذهابا وايابا والكلب يتبعنا متعبا اذ دست على غير
انتباه وقصد على رجل صاحبي فآلمه ذلك فأخذ يبكي ويصرخ
وقام ولطمني وجاء اخوه وأبوه وأشبعاني ضربا ولكما . ولما
كنت يتيما وحيداً فقيرا لم ار احداً يشفع لي بل أن الذين
حضروا أخذوا جميعهم يلومونني ويعنفونني فآلمني ظلمهم اكثر
من ضربهم وتأنيبهم ولم أزل لليوم أذكر هذه الحادثة التي
كانت السبب فيما أنا فيه وعليه لاني عندما تخلصت منهم
جئت الى الكلب الصغير فحملته وسرت هائما على وجهي
باكيا شاكيا ساخطا فبت تلك الليلة جائعاً في احدى المغائر
وفي صباح اليوم التالي قمت مبكراً أحمل كلبي أبحث عن شيء
نقتات به فأبصرت من بعيد راعيا آتيا مع قطيع كبير من
الغنم فركضت اليه وقبلت يديه وطلبت منه قطعة خبز لآكلها
مع كلبي فهش في وجهي وبش وسألني الى أين أقصد ومن
أين أنا ومن أنا فأخبرته بجميع قصتي فرق قلبه لي وفتح جرابه
وأعطاني رغيفاً وأمسك أحدى النعاج وحلب منها قليلا من

اللبن وسقى كلبي فأكلت الرغيف واطعمت أيضا منه الكلب وفرحت جدا وأنست بهذا الراعي وقمت الى يده مرة أخرى اقبلها وأردت متابعة السير فاستوقفني وقال لي أن أبقى معه طول النهار وفي المساء يأخذني معه الى الدير حيث أن هذا القطيع هو لاحد الاديار وهكذا كان ففي المساء جئنا الى الدير وبعد أن أدخل الغنم الحظيرة ذهب وكلم أحد الرهبان فجاء الي وأخذني بيده الى الرئيس فسألني عن قصتي فأخبرته بها من أولها الى آخرها فسكت قليلا وفكر ثم ضمني الى صدره وقبلني وقال لي يابني اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد سمح لك بهذا الشر كي ينتج لك منه خيرا كما أن هذا الالم الذى نالك من ضرب هؤلاء الناس لك . لربما كان قصاصا عما آلمت به كلبك ولكن لا بأس من هذا فالنتيجة هي على كل حال خير لك فاني أقبلك هنا وستكون في النهار مع الراعي تساعده على رعاية ومراقبة القطيع وفي المساء سآمر أحد الاخوة بأن يعلمك أصول القراءة وقواعد الدين ففرحت جداً جداً وشعرت بسرور داخلي وارتياح عظيم فقبلت يدى الرئيس وشكرت له هذا الصنيع . وهكذا

بقيت في خدمة الدير اثني عشر سنة أذهب في صباح كل يوم مع صديقي ومخلصي الراعي بطرس يصحبنا كابي الامين بلبل نرعى الغنم وفى المساء نعود بها وبعد العشاء كنت أذهب أولا في السني الاولى الى معلمي الراهب يوحنا اتلقى عليه أصول القراءة والكتابة وأمور الدين وبعد أن أتقنت هذه كلها كنت اختلي إلى مكتبة الدير أطالع الكتب فيها الى قرب نصف الليل محاولا فهم ما فيها وتطبيقه على ما كنت أشاهده أو أسمعه أو يجول بخاطري وكنت أكثر الحديث مع الرهبان ومع بطرس مستفهما عن كل شيء خصوصاً مع صديقي هذا الاخير حيث كان الوقت متسعاً لنا وأمامنا من الطبيعة كتاب لا نهاية له نأخذ عنه دروسنا ونروض الفكر على ما كان يبدو لنا من الأسرار. فحقاً يابني أن الطبيعة لهي أعظم أستاذ يعطي دروسه بسخا وعن ينبوع لاينضب لكل من يسترشد به ويأتي اليه يستنير بنبراسه فالدارس على الطبيعة الآخذ عنها حكمته وعلمه يكون حقيقة حكيما عالما فينفتح أمامه كتاب الكون يقرأ فيه كما تقرأ أنت فى صحيفة الاخبار بشرط أن

يواجهها بأكملها ومن كل الوجوه وليس من جهة أو من بعض الجهات

ففي أحد الايام بينما كنت مع بطرس نرعى القطيع على حسب المعتاد وبلبل الكلب الامين يركض الى هنا والى هناك مراقبا حارسا لاحظت على بطرس آثار الم يكافحه ويريد ان يتغلب عليه ويخفيه عني فسألته مالك ياصاح فاني أرى على وجهك وفي حالتك مايدلني على انك تتألم فبماذا تشعر قل لي لعلي استطيع ان افيدك بشيء فشكرني وقال صحيح ما لاحظت فاني طول الليلة الماضية وانا على غير مايرام ولكني عند الصباح انست في بعض التحسن فقمت كالعادة ولكن الآن عاودني الالم بشدة لاتمكني من متابعة السير فهات يدك ولنجلس تحت هذه الشجرة القريبة ففعلت وبعد ان اجلسته ذهبت الى بعض الآبار واستقيت دلو ماء اتيته به فغسلت وجهه ويديه ورجليه فنام قليلا ولما استيقظ كان قد استراح بعض الراحة وهدأ الألم نوعا ما ولكنه لم يلبث ان عاوده حينئذ اشرت عليه بالرجوع بالغنم الى الدير فقبل ورجعنا وعند عودتنا اخبرت الرئيس والرهبان بالامر

فخضروا الى غرفته وسقيناه بعض العقاقير وعالجناه على قدر الامكان ولكن لم يصبح الصباح الا وكان صاحبي ومنقذي بطرس قد فارق الحياة فبكيناه جميعاً بدموع حارة وبعد الصلاة عليه واريناه التراب في مقبرة الديراما بليل فان حزنه قد فاق حزننا جميعاً فانه عند مارافقنا الى المقبرة ورأى ماحل بفقيدنا انقطع عن الاكل وذهب عنا واختفى وبعد بضعة أيام وجدناه ميتا على قبر بطرس وهكذا فقدت رفيقي واصبحت وحيداً مرة اخرى عندئذ اشتد بي الحزن وصغرت في عيني الحياة ولم أعد اطيق القيام في الدير فاستأذنت الرئيس وودعت الرهبان والاسى ملء القلب واخذت هذه العصا وهذا الجراب وهما من مخلفات بطرس وسرت هائما على وجهي من تلك الساعة الى الآن حيث تراني ممك . فتأثر الشاب من هذا الحديث ونظر الى الشيخ نظرة اشفاق كانه يشاركه في كل ماحل به من المصائب وود لو ساعدته الظروف ليكون معه دائما ملازماً كما كان هو فيما مضى مع بطرس . ولما كان الوقت قد مضى وقد تأخر عن ميعاد رجوعه الى منزله دعا الشيخ الى المبيت عنده كي يتابع الحديث فاعتذر

الشيخ عن قبول الدعوة بكل لطف ووعده باللقاء في الغد في المحل ذاته فتفارقا على أمل المقابلة في الغد يفكر كل في صاحبه كأنهما يعرفان بعضهما من سنين حيث ان هذه البرهة الوجيزة التي قضياها سويا كانت كافية لتمكين عرى التعارف لا بل الصداقة بينهما ولاغرو فان هذا الامر يكثر حدوثه جداً بين الناس وحتى بين الحيوانات عند تجانس الدم والروح

— الفصل الثالث —

هل يوجد خير أو شر في الحقيقة ؟
أم إن ما نظنه خيراً لنا هو شر للغير والعكس بالعكس

في اليوم التالي في الوقت المعين اقبل صاحبنا الشاب نجيب وجلس على المقعد حسب المعتاد ولم تمض برهة قصيرة حتى حضر شيخنا وبعد تبادل التحية والسلام قال له نجيب والله ياشيخي اني لم اذق مرارة الانتظار مثل الليلة فقد كانت كل دقيقة منها بيوم وكل ساعة بشهر فتبسم الشيخ وقال وهذا ما كان عندي أيضاً ولنعد الآن إلى الحديث

من سياق كلامي لك أمس يتضح أنني تركت الدير